

نازحو إدلب



ما كان متوقعاً قبل بدء المعركة المندلعة في إدلب، بدأت موجات هجرة غير مسبوقةٍ منذ اندلاع الحرب في سوريا. وبدأ الناس بالنزوح، حتى قبل أن تبدأ المعركة التي كان يتحسب لها الجميع، في تركيا والدول الغربية، وطبعاً أهالي إدلب والنازحون إليها، بسبب تبعاتها المتوقعة، والتي سرعان ما ظهرت. وفي حين سعت تركيا، الخائفة من موجات هجرة جديدةٍ تصل إلى أراضيها، إلى وقاية المدينة من المعركة عبر اتفاقيتي سوتشي وأستانة، وعبر إقامة منطقةٍ عازلةٍ لإعادة اللاجئين إليها، إلا أن جهدها ضاع، وخاب أملها في الروس ضامني الاتفاقيتين. وأخذت فجأة تظهر مشكلة لاجئين جديدة، بدا المجتمع الدولي عاجزاً عن احتواها، وأظهرت المأساة التي تخللتها مدى نكران هذا المجتمع مأساة السوريين التي تتكرر دورياً.

وكانت هذه المعركة بمثابة الكابوس الذي أرق أهالي المدينة، حتى قبل وقوعها بست سنوات، بسبب كثافة السكان في المدينة، وبسبب كثرة التنظيمات العسكرية المعارضة للنظام، والتي تعمل في إدلب، وتتوزع تبعاتها بين هذا الفاعل الإقليمي وذاك، ما يجعل الصدام بينها قائماً فيزيد من عمق مأساة أهالي المدينة والنازحين، على السواء. ولكن الكابوس حلّ قبل بدء المعرك، وبدأ الناس بهجرة المدينة وريفها ومخيمات النزوح حولها، منذ بداية ديسمبر/ كانون الثاني الماضي، حين عرفوا أن الجيش النظامي وروسيا يستعدان للمعركة، ويحشدان قواتهما على تخوم المدينة. وفي شهرين لا أكثر، نزح حوالي نصف مليون من السكان، وازداد هذا العدد مع احتدام المعرك ليصل إلى 800 ألف نازح، بحسب إحصاءات المفوضية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة.

لـجأ النازحون إلى العراء، على الحدود السورية التركية، وانتشروا في الجبال الجرداء وبين البساتين، أملاً بـألا تطاولهم نيران القذائف التي بدأت تنهال على المنطقة من شهرين. ولكن البرد الذي يأتي في هذه الفترة من السنة فاقم مصابهم، ولم تستطع خيامهم الهزلية أن تحميهم من الأمطار أو الثلوج التي تراكمت فوقها، ولا من البرد الذي قتل عدداً منهم. ومن النازحين من افترش العراء، فلم يجد خيمةً تقيه المطر أو البرد أو حتى هجمات الحيوانات البرية، ويصل عدد هؤلاء إلى 80 ألف نازح، بينما لـجأ 20 ألفاً إلى الأشجار، ليبيتوا تحتها علها تؤمن لهم بعض الحماية. وقالت لجنة الإنقاذ الدولية، غير الحكومية، إن ستة أطفال ماتوا جراء الصقيع في الأيام الأخيرة، بينما وُجدت عائلة بـكاملاً ميتةً بسبب البرد القارس الذي يضرب المنطقة.

كتبت إحدى الصحف العالمية أن حجم الأزمة الإنسانية صدم منظمات الإغاثة. ولكن ما صدم لجنة الإنقاذ الدولية أكثر أن هؤلاء النازحين بـمجملهم ليس لديهم مكاناً للنـزوح إليه، وحيث امـتـلـأـ ما توـفـرـ من مـدارـسـ وـأـمـاـكـنـ عـبـادـةـ، بل وـحتـىـ سـجـونـ، بـأـعـدـادـ ضـخـمـةـ تـزـيدـ عـنـ طـاقـتـهاـ الـاسـتـيـعـابـيـةـ، بـالـنـازـحـينـ، لمـ يـتـبـقـ لـلـآـخـرـينـ سـوـىـ "ـالـلـامـكـانـ"ـ لـلـجـوـءـ إـلـيـهـ. وـتـسـأـلـ نـائـبـ مـنـسـقـ الشـؤـونـ الـإـنـسـانـيـةـ الـإـقـلـيمـيـ لـلـأـزـمـةـ السـوـرـيـةـ التـابـعـ لـلـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ، مـارـكـ كـتـسـ: "ـإـلـىـ أـيـنـ يـتـجـهـ هـذـاـ الـعـالـمـ، إـنـ لـمـ يـكـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ تـأـمـيـنـ حـمـاـيـةـ لـثـلـاثـةـ مـلـاـيـنـ بـشـرـيـ يـقـطـنـونـ إـدـلـبـ وـمـحـاـصـرـيـ بـالـحـرـبـ؟ـ، وـذـلـكـ بـعـدـ أـنـ وـجـهـ نـدـاءـاتـ مـنـ أـجـلـ تـحـرـرـ دـولـيـ بـشـأنـ الـأـزـمـةـ فـيـ سـوـرـيـةـ، إـلـاـ أـنـ نـدـاءـاتـهـ لـمـ تـجـدـ صـدـىـ لـدـىـ أـحـدـ. وـفـيـ هـذـهـ الـأـجـوـاءـ، ذـكـرـتـ صـحـفـ غـرـبـيـةـ أـنـ مـنـ الـوـاـضـحـ أـنـ الـعـالـمـ، وـالـحـكـوـمـاتـ الـغـرـبـيـةـ بـالـتـحـدـيدـ، قـرـرـوـ إـلـاـءـ الـمـأـسـاةـ الـإـنـسـانـيـةـ فـيـ الشـمـالـ السـوـرـيـ الـأـذـنـ الـطـرـشـاءـ لـدـوـافـعـ أـنـانـيـةـ، فـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ تـخـوـفـهـمـ مـنـ أـزـمـةـ لـجـوـءـ جـدـيـدـةـ إـلـىـ أـوـرـوـبـاـ.

وبـاـوضـحـاـ، مـنـذـ الـأـيـامـ الـأـوـلـىـ لـلـمـعـرـكـةـ، أـنـهـ سـتـسـفـرـ عـنـ تـفـاهـمـاتـ جـدـيـدـةـ، وـسـتـذـهـبـ بـتـفـاهـمـاتـ قـدـيـمـةـ بـيـنـ الـلـاعـبـينـ الـإـقـلـيمـيـينـ حولـ سـوـرـيـةـ وـحـولـ إـدـلـبـ تـحـدـيدـاـ. كـمـاـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ تـغـيـرـ مـنـ خـرـيـطـةـ الـمـعـارـضـةـ الـعـاـمـلـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ؛ـ إـذـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـونـ أـوـلـ هـذـهـ التـغـيـرـاتـ وـأـغـرـبـهـ، إـلـاـنـ هـيـةـ تـحـرـيرـ الشـامـ (ـجـبـهـةـ النـصـرـةـ سـابـقـاـ)، حلـ نـفـسـهـاـ فـيـ ذـرـوـةـ الـمـعـارـكـ، فـقـدـ تـوـاتـرـتـ الـأـنـبـاءـ عـنـ حـلـ الـهـيـةـ ذـرـاعـهـاـ الـمـدـنـيـ، تـمـهـيـداـ لـحـلـ ذـرـاعـهـاـ الـعـسـكـرـيـ، وـسـتـخـيـرـ أـعـصـاءـهـاـ بـيـنـ تـسـلـيـمـ أـسـلـحـتـهـمـ الـفـرـديـةـ أـوـ الـاحـفـاظـ بـهـاـ وـالـانـضـمـامـ إـلـىـ الـفـصـائـلـ الـمـسـلـحـةـ الـأـخـرـىـ لـلـمـقـاتـلـةـ تـحـتـ جـنـاحـهـاـ. إـنـ صـحـ ذـلـكـ، رـبـماـ تـهـدـفـ الـهـيـةـ مـنـ الـخـطـوـةـ سـحـبـ ذـرـيـعـةـ مـحـارـبـةـ الـإـرـهـابـ، الـمـمـتـلـلـ بـالـهـيـةـ، مـنـ الـجـيـشـ الـنـظـامـيـ وـمـنـ الـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ لـتـجـنـيـبـ الـمـدـيـنـةـ مـعـرـكـةـ غـيرـ مـحـسـوـبـةـ الـعـوـاقـبـ. كـمـاـ أـنـ تـجـرـيـدـ الـفـصـائـلـ الـمـعـارـضـةـ فـيـ إـدـلـبـ مـنـ أـسـلـحـتـهـاـ كـانـ بـنـداـ فـيـ اـتـفـاقـ سـوـتـشـيـ، وـتـعـهـدـتـ تـرـكـيـاـ بـتـحـقـيقـ هـذـاـ الـمـطـلـبـ فـيـ مـقـابـلـ أـنـ تـمـتـنـعـ قـوـاتـ الـنـظـامـ وـالـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ عـنـ شـنـ هـجـومـ عـلـىـ إـدـلـبـ. وـأـدـىـ شـنـ الـجـيـشـ الـنـظـامـيـ السـوـرـيـ، مـدـعـوـمـاـ بـقـوـاتـ رـوـسـيـةـ الـهـجـومـ عـلـىـ إـدـلـبـ، إـلـىـ تـدـخـلـ الـجـيـشـ الـتـرـكـيـ لـحـمـاـيـةـ الـمـدـنـيـيـنـ، وـضـمـانـ سـرـيـانـ اـتـفـاقـ سـوـتـشـيـ، لـأـنـ تـرـكـيـاـ تـخـافـ خـرـقـ الـاـتـفـاقـ، وـتـسـبـبـ الـمـعـارـكـ بـمـوـجـةـ نـزـوـحـ، رـبـماـ بـالـمـلـاـيـنـ، لـيـسـتـ أـنـقـرـةـ فـيـ وـضـعـ يـسـمـحـ لـهـاـ بـالـتـعـاـمـلـ مـعـهـاـ الـتـعـاـمـلـ. الـمـطـلـوبـ.

وـفـيـ حـينـ بـرـرـتـ الـحـكـوـمـةـ السـوـرـيـةـ هـجـومـهـاـ عـلـىـ إـدـلـبـ بـأـنـ اـتـفـاقـ سـوـتـشـيـ الـخـاصـ بـالـمـدـيـنـةـ لـمـ يـطـبـقـ، وـخـصـوصـاـ مـنـهـ الشـقـ الذيـ يـتـعـلـقـ بـفـتـحـ الـطـرـقـ الـدـوـلـيـةـ الـتـيـ تـرـبـطـ حـلـ بـدـمـشـقـ، بـسـبـبـ اـسـتـمـرـارـ سـيـطـرـةـ الـفـصـائـلـ الـعـسـكـرـيـةـ الـمـعـارـضـةـ عـلـىـ أـقـسـامـ مـنـهـاـ فـيـ رـيفـ الـمـدـيـنـةـ، وـتـقـيـيـدـ حـرـكـةـ الـمـرـورـ عـلـيـهـاـ، تـقـوـلـ تـرـكـيـاـ إـنـ الـهـجـومـ الـأـخـيـرـ يـعـدـ خـرـفـاـ لـهـذـاـ الـاـتـفـاقـ. وـمـنـ هـنـاـ بـرـزـ الـخـلـافـ بـيـنـ رـوـسـيـاـ وـتـرـكـيـاـ، مـاـ اـسـتـدـعـيـ لـقـاءـاتـ عـدـةـ بـيـنـ مـسـؤـولـيـ الـبـلـدـيـنـ، لـلـتـوـصـلـ إـلـىـ تـفـاهـمـاتـ بـدـتـ صـعـبـةـ، وـمـنـ ثـمـ أـدـىـ إـلـىـ إـجـراءـ.

اتصالات هاتفية بين الرئيسين، الروسي بوتين والتركي أردوغان. وقد اشتَمَت أميركا أن الخلاف بين الطرفين جديٌّ، وهو من الجديّة بحيث يمكنها التعميل عليه لدفع تركيا إلى التخلّي عن التسلّح بالأسلحة الروسيّة، وخصوصاً منها أنظمة "أس 400" للدفاع الجوي.

واضحُ أن معركة إدلب الجاربة لن تكون مثل غيرها من المعارك بين المعارضة المسلحة وقوات النظام والقوات الحليفة لها، من حيث تداعياتها على العلاقة بين المتدخلين في الحرب السوريّة، خصوصاً روسيا وتركيا، وأميركا وتركيا، وربما ستتضمّن العلاقة بينهم في المُقبل من الأيام بسماتٍ تختلف عما قبلها. وواضحُ أيضاً أن الغرب قرر أن يُغمض عينيه عن المأساة التي يعيشها المدنيون السوريون الذين نزحوا إلى المجهول. وهو بذلك لا يكون قد قرر النأي بنفسه عن هذا الصراع، اتقاءً لبعاته عليه، بل يكون قد قرر أن ينأى عما يدعّيه من مناصره حقوق الإنسان أينما كان.

المصادر:

العربي الجديد